نماذج من العمارة الدينية بقصري تقرت وتماسين

Model of Religious Edifice in Ksar of Touggourt and Tamacine

د.بن صغير حضري يمينة

جامعة غرداية– (الجزائر)

Email : bensghryami@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019/12/01 ؛ تاريخ القبول : 2020/05/09 ؛ تاريخ النشر : 2020/07/20

ملخص:

اهتم الإنسان مند القديم بعمارته الدينية لما للجانب الروحي من اثر فعال في قيام الحضارات سواء كانت ديانات سماوية أو معتقدات وضعية، وذلك باختيار أحسن المواقع، وأصلب مواد للبناء و أجودها، لهذا بقيت هذه المعالم ثابتة لعدة قرون، بالرغم مما قد تتعرض له المباني المدنية من تدهور و انهيار، وعليه فان الزائر لقصور الجنوب الجزائري يلاحظ صمود عمارتها الدينية، وتميز جوامعها ومساجدها عن غيرها من المباني المدنية، حيث بقيت قائمة بالرغم من مرور ألاف السنين، و تعرضها للعديد من العوامل الطبيعية، فبنيت جوامع و مساجد كل من قصري تقرت و تماسين بدورها بكثير من الإتقان و التفنن، مما ساعد على استمرارها و بقائها.

الكلمات المفتاحية: عمارة دينية؛ قصر؛ تقرت ؛ تماسين ؛ مسجد

Abstract

Since the old time human being had focused on the religious architecture due to the spiritual effect on the establishing civilization on either monotheism or positive religious, by selecting strategic sites on which the edifice is being built with high quality and strong materials, this explain the long life of those monument which last for ages, despite that some of them has been ruined and the collapsed. the visitor of the Ksour in the south of Algeria notice the resistance of the religious architecture of mosques and worship building which still exist even though thousands of years has gone by, and the affect of different natural factors , moreover the visitor attention is drawn by the workmanship and art proficiency by which Mosques and worship edifice in Tamacine and Touggour Ksars has been built, that make them last longer..

Keywords: Religious Edifice; Ksar; Touggourt; Tamacine; mosques.

– تمهيد :

تكمن أهميّة هذه الدّراسة في تسليط الضوء على نماذج مهمّة من العمارة الدينيّة الأثريّة بالجنوب الجزائريّ بصفة عامة وقصري تقرت وتماسين بمنطقة وادي ريغ بصفة خاصة، والتعريف بقيمتها الحضاريّة، وخصائصها المعماريّة والفنيّة التي لا تقلّ أهميّة وجماليّة عن مثيلاتها في مختلف أرجاء الوطن.

في الغالب يتوسّط كلّ قصر من قصور الجنوب الجزائريّ جامع ارتبط تاريخه بتاريخ إنشاء القصر، وتنتشر حوله مجموعة من المساجد التي اختلفت ظروف بنائها، وتعدّدت تسمياتها، ولكنّها اجتمعت على القيام بدورها الدينيّ والاجتماعيّ المنوط بها. وقصرا

الدّراسة من ضمن القصور التي تقع بإقليم وادي ريغ، والتي تتعرّض معالمها الدينيّة اليوم إلى التهديم والتغيير دون أدنى اهتمام بقيمتها التاريخيّة وخصوصيّتها المعماريّة، وعليه سنعمل من خلال هذه الدّراسة على تقديم نماذج من الجوامع والمساجد المتبقية في كلّ من قصري تقرت و تماسين، ودراستها دراسة تاريخيّة وأثريّة. وتتجلى الإشكاليّة التي تعالجها هذه الدراسة في البحث في الخصائص المعماريّة والفنيّة التي تميّز العمارة الدينيّة بكلا القصرين؟.

أولا : العمارة الدّينيّة بالقصرين :

تنوّعت المنشآت الدينيّة في المدن الإسلامية، ولكنّ المسجد الجامع من أهمّها وأكثرها مكانة عند المسلمين للدور الدينيّ والعلميّ والاجتماعيّ المنوط به، لهذا كان من أوّل المنشآت في المدينة الإسلاميّة، روعي في بنائه مركزيّة المكان من حيث موقعه في وسط المدينة حتى يكون مركز إشعاع تدور حوله مختلف النّشاطات الحياتيّة، كما لقي المسجد الجامع اهتماما خاصا في عمليّات الصيانة والإصلاح لهذا صمد لعدّة قرون أمام مختلف العوامل الطبيعية والبشرية، فالجامع بني في قلب التّجمّع السّكانيّ، بحيث يستطيع كلّ السّكان الوصول إليه بسهولة ويسر، والمسجد الجامع ليس فقط مكانا لأداء الصّلاة، بل مقرا سياسيّا أيضا، وفضاء لعقد الاجتماعات، والمشاورات، ومحكمة قضائيّة ومؤسّسة تعليميّة (قلعة جي، ع.1991 : 69).

تتمثّل المنشآت الدينيّة في كلّ من قصر تقرت وتماسين في مجموعة من العمائر المختلفة من المساجد الجامعة والمساجد، والزوايا، والأضرحة، ولتنوّعها سنختار من العمارة الدينيّة في كلا القصرين الجوامع والمساجد، هذه الأخيرة التي اختلفت مساحة مبانيها، واختلفت جماليّتها بين الجوامع العتيقة والمساجد، إذ أولي للمساجد الجامعة عناية خاصة من حيث إتقان البناء، وروعة الزّخرفة كما سبق الذّكر، في حين كانت المساجد بسيطة باستثناء مسجد عبد الله المغراوي الذي تميّز بمئذنته التي تعدّ تحفة معماريّة تسرّ النّاظرين.

يتبيّن من خلال الرّوايات الشّفويّة أنّ جلّ هذه المنشآت لم تبن لحاكم، أو بأمر منه ما عدا الجامع العتيق بتقرت، لأنّه تزامن وقيام مملكة بني جلّاب، كما أنّها لم تكن عملا يفتخر به بقدر ما كانت عملا يرجى من ورائه رضى الله سبحانه وتعالى، وذلك مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ، أَوْ أَصْغَرَ ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » رواه ابن ماجه وصحّحه الألباني (سابق، أ.1993 :184).

تعرّضت هذه الجوامع والمساجد بصفة عامة، ومساجد قصر تقرت بصفة خاصة إلى التّهديم والتّغيير في نمطها المعماريّ أكثر من غيرها من المباني، بخاصة بعد دخول الفرنسيين إلى المنطقة، وتحويلهم للمسجد الموجود داخل قصبة حكّام بني جلّاب إلى ورشة، كما عملوا على تهديم المسجد القديم (مسجد المالكيّة) مع الاحتفاظ بمنارته التي استعملوها كبرج للمراقبة العسكريّة، وبهذا لم يبق بقصر تقرت من المساجد العتيقة سوى الجامع العتيق، أو ما يعرف بجامع بني جلّاب. (Jus, H.1884: 66 -72).

ثانيا- **موقع وتاريخ الجوامع والمساجد:** :

اختلفت ظروف بناء وتاريخ كلّ جامع أو مسجد، ففي كلّ قصر من القصرين مسجد جامع، في حين تعرّضت مساجد تقرت إلى التّهديم كما سبق الذّكر، أما مساجد قصر تماسين فإنّها مازالت تزاول نشاطها إلى اليوم، وتمتاز هذه المساجد بصغر مساحتها، وبساطة بنائها بحيث يلاحظ الداخل إليها صبغة الزّهد والتقشّف، وهي موزّعة ضمن نسيج قصر تماسين، بحيث يسهل الوصول إليها لأداء الصّلوات الخمس، وتعليم القرآن الكريم، وتدريس الصّغار.

تمثّلت هذه الجوامع والمساجد المنتشرة داخل نسيج القصرين في الآتي :

1) الجامع العتيق بتقرت(جامع بني جلّاب):

يقع الجامع العتيق بتقرت في الجهة الغربيّة للقصر مقابلا للسّاحة العامة، وبحسب الشيخ ابن دومة، فإنّ هذا الجامع كان في الأصل مسجدا للإباضيّة خرّبه الأعراب في عهد سيدي محمد بن يحيى، فبنى أهل البلاد قبالته المسجد المالكيّ، على اعتبار أنّه ابتداء من القرن الثامن الهجري إلى الرّابع عشر ميلاديّ ساد المنطقة المذهب المالكيّ على حساب المذهب الإباضيّ، فبقي المسجد الإباضيّ خرابا إلى سنة 1220هـ/1805م، عندما قام الشيخ إبراهيم الجلّابي بمساعدة السّكان بإعادة بنائه، تكفيرا عن قتله لأخيه (بن دومة،م.1995 :23 -37)، فالزّائر لهذا الجامع يقرأ في اللّوحة الرّخاميّة الموجودة إلى حدّ اليوم بأعلى مدخل بيت الصّلاة ما يأتي:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، وصلّى الله على سيّدنا محمّد

كمل بناء هذا المسجد وعظم بحول الله وحسن عونه

على يد من أسّس بناءه بتقوى من الله ورضوانه الأمير الأسعد والأمين الأرشد

قاصدا به وجه الله الأكرم الشيخ إبراهيم بن محمد بن جلّاب

سنة 1220 هـ عشرين ومائتين وألف وبالله التوفيق »

وفي سنة 1250 هـ/1834 م رُمّم الجامع على يد إبراهيم الثاني ابن جلّاب (pein,M.1893:35)، هذا الأخير الذي قام بجلب البنائين والصُنّاع من مختلف المناطق المجاورة بخاصة من تونس لقربها من المنطقة، وتطوّر علاقاتها مع حكّام مملكة بني جلّاب(شهبي، ع.1985 :42).(لوحة 01)

2) الجامع العتيق بتماسين:

يشغل الجامع العتيق بتماسين الجهة الشّماليّة الغربيّة للقصر على بعد خطوات من قصبة حكّام بني جلّاب سابقا، ليس ببعيد عن مسجد القبّة الخضراء ،وهو بذلك يتوسّط القصر، بحيث يسهل الوصول إليه من خارج القصر مرورا بالشوارع الرئيسة، وقد اختلف المؤرّخون في تحديد تاريخ بنائه، ولكن بحسب الروايات الشّفويّة لشيوخ المنطقة، وما تناقلته بعض المراجع، فإنّ تاريخ بنائه يعود إلى القرن 7هـ/13م، حيث كانت مساحة الجامع في بادئ الأمر صغيرة لا تزيد عن عدّة أمتار طولا، ثمّ قام السّكان بشراء بعض المنازل المحيطة بالجامع وتوسيعه حتى يستطيع استيعاب زيادة عدد المصلين، ليتواصل بناؤه في سنة 1922م من طرف البنّاء الحاج محمد السّبع المعروف باسم « بابا عيسى » بمساعدة سكان القصر(berrbrugger,A.1855:85 -86).

3) مسجد با عيسى:

يقع هذا المسجد بالجهة الجنوبيّة لقصر تماسين، يتمّ الوصول إليه عن طريق مدخل السّوق، أما تاريخ بنائه فإنّ المراجع التاريخيّة لم تشر إلى ذلك بالتحديد، فاكتفى بيربريجر (Berrbrugger) بالقول أنّ هذا المسجد كان مقرا لمرابط الإباضيين(Berrbrugger,A.1855:)،كما أنّ التّسميّة في حدّ ذاتها « با عيسى » تسميّة إباضيّة، بخاصة وأنّ المذهب الإباضيّ تواجد بالمنطقة منذ وقت مبكّر، وكان له أتباعه، فغير بعيد عنه بقرب قصر بلدة عمر أسّس نظام العزابة (الدرجيني،أ.د.ت:97)، وبحسب الرّوايات المحليّة فإنّه كان للمسجد مئذنة على الطراز الإباضيّ شبيهة بمآذن جوامع قصور سهل وادي مزاب، وهذا ما يؤكّده دوماس(Daumas) عند حديثه عن المساجد بتماسين، إذ يذكر بأنّه كانت توجد مئذنتان بالقصر :الأولى بمسجد عبد الله المغراوي، والثانية بمسجد باعيسى، والتي تمّ تهديمها لما كانت تشكّله من خطر الانهيار على السّكان(Daumas,c.1845:184).

4) مسجد القبّة الخضراء (مسجد سيدي علي التماسيني):

يشغل هذا المسجد موضعا مهما بالنّسبة للقصر، لأنّه يفتح على الشارع التجاري الممتد إلى مسجد عبد الله المغراوي، ومنه إلى باب خوخة،كما يفتح من جهة أخرى على الشارع الذي يؤدّي إلى وسط القصر، ومنه إلى الجامع العتيق وبذلك يسهل الوصول إليه.

تأسّس هذا المسجد من طرف الحاج علي التماسيني بن الحاج عيسى(ينظر التعليق رقم 1) حـــوالى سنة 1204 هـ/ 1789 م بمساعدة أتباع الطّريقة التيجانيّة، وأُطلق عليه اسمه، ومع الأيّام تحوّل اسمه إلى مسجد القبّة الخضراء نسبة إلى قبّته المغطاة بالقرميد الأخضر المستورد من تونس(التجاني،م.1964 :49)، ويتميّز هذا المسجد بصغر مساحته إذا ما قورن بالمساجد الأخرى بالقصر، وقد خصّص بالجهة الشماليّة للمسجد مكان لاستراحة الإمام يفصله عن بيت الصّلاة الأصليّة جدار يبدو من خلال المعاينة أنّه بني في وقت لاحق لبناء المسجد.

5) مسجد عبد الله المغراوي:

يقع مسجد عبد الله المغراوي بالجهة الجنوبيّة الغربيّة للقصر، ليشغل بذلك أعلى موقع بربوة القصر، يفتح على الشارع الرّئيسي المؤدي إلى باب طازات (خوخة)(ينظر التعليق رقم 2)، وقد اختلف المؤرّخون في تحديد تاريخ بناء المسجد ومئذنته، بالرّغم من اتّفاقهم على أنّ بناءه يعود إلى عبد الله المغراوي الذي يعود أصله إلى المغرب الأقصى،كون المنطقة كانت مركز عبور للقوافل التجاريّة، وركب الحجّاج، وكان الكثير منهم يستقرّ بقصور وادي ريغ، ومنهم عبد الله المغراوي، فيذكر قادري عبد الحميد أنّ المسجد شيّد منذ سنة 588 هـ / 1192م(قادري، ع.1999 :48)، ويؤيّده في ذلك ما جاء في مطبوعة محفوظة بأرشيف البلدية تضمّنت ما يأتي: « ... تتوسّط القصر القديم مئذنة عتيقة يرجع تاريخ بنائها إلى عام 1192م ... وقد بناها البنّاء محمد الفاسي المغربيّ، تحت إشراف مؤسّس المسجد المسمّى الحاج عبد الله المغراوي ... »(مطبوعة،د.ت)، في حين يذهب شهبي إلى أبعد من ذلك بقوله « ... إنّ أحد المصلحين المسمّى سيدي الحاج عبد الله المغراوي هو الذي بنى المسجد في بلدة تماسين، وكذلك المئذنة سنة 719هـ-1319م ...».(شهبي، ع.1985 :42)

أما الرحالة المغربي أبوسالم العياشي فيقول في هذا الصدد: « وفي مسجدهم مئذنة وثيقة البناء طويلة جدا ،فيها نحو مئة درجة، على بابها اسم صانعها وهو المعلّم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها سنة سبع عشر وثمان مئة .. »(العياشي، ع.1898 :49)، وهذا التّاريخ مطابق لما ذكره الشيخ ابن دومة في مذكّرته حول تاريخ بناء المسجد الذي يعود إلى سنة 817 هـ/1414 م(ابن دومة،م.1995 :14).

لقد حاولنا العثور على الكتابة المشار إليها آنفا، ولكن يبدو أنّها طمست جرّاء التّرميمات التي أجريت على المئذنة سنة 1958م، هذه التّرميمات التي مسّت بحسب التّحريات واجهات وباب المئذنة، حيث سدّ هذا الأخير ،وفتح باب ثان موجود حاليا، كما غيّرت بعض قطع الآجر، ومتّنت القاعدة بمساند مع إعادة ربطها من الأسفل بأسس متينة من الإسمنت المسلّح(قارة،م.1986 :32)، ومن جهة أخرى فإنّ المئذنة زخرفت بمادة الآجر، هذا الأخير الذي كثر استعماله في البناء بذلك الإتقان تزامن ووجود بني جلّاب بالمنطقة أي خلال القرن 9هـ/15م، حيث شهدت المنطقة في عصرهم ازدهارا اقتصاديا، وصراعا سياسيا انعكس بشكل كبير على تطوّر فنّ العمارة بوادي ريغ. (Boisnard, M. 1933 :24)

ثالثا) وصف الجوامع العتيقة والمساجد:

لم تختلف الجوامع والمساجد الموزّعة بكلّ من قصري تقرت وتماسين من حيث تخطيطها وزخرفتها عن مثيلاتها المنتشرة بالصّحراء الجزائريّة، مع اختلاف بسيط في مواد البناء المستعملة لارتباطها بطبيعة المنطقة وما توفّره من مواد، وبعض التفاصيل المتعلّقة بكبر أو صغر المساحة، ويمكن إدراك ذلك من خلال الآتي:

1) التّصميم العام:

تعدّ مساحة هذه الجوامع والمساجد صغيرة إذا ما قورنت بغيرها من الجوامع والمساجد المعروفة في مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ، وقد أخذت هذه الجوامع والمساجد أشكالا مختلفة، منها ذات الشّكل المستطيل عرضها أكبر من عمقها مثل مسجد با عيسى 22 × 30.5 م، ومسجد عبد الله المغراوي 17.5 × 31م، وهي بذلك شبيهة في تخطيطها بالعديد من جوامع المغرب الأوسط مثل جامع ندرومة 539هـ/1145م، وجامع تلمسان 530هـ/1136م، وجامع الأغواط 885هـ/1480م، أو مستطيلة الشكل عمقها أكبر من عرضها تمثّلت في الجامع العتيق بتماسين 33.5 ×31 م، ومسجد القبّة الخضراء 21 × 13.5 م، وهي شبيهة في ذلك بجامع قسنطينة 9هـ/13م، وجامع سيدي أبو مروان بعنابة 425هـ/1033م، والجامع العتيق بعين ماضي 5هـ/11م، أو ذات شكل غير منتظم مثل الجامع العتيق بتقرت 42 × 46 م (دون الزّيادة الحديثة)، وهذا التّخطيط شبيه بجامع تاجموت بالأغواط، وتضمّ هذه الجوامع والمساجد بالإضافة إلى بيت الصّلاة كلّ من الصّحن، والميضأة، وغرفة الإمام، وغرفة لتعليم القرآن العظيم، وما تجدر الإشارة إليه أنّ الجوامع العتيقة في كلا القصرين ذات مساحة أكبر من المساجد، ويتجلّى ذلك بشكل واضح في بيت الصّلاة، كما تمتاز هذه المنشآت بأضلاعها غير المتساوية وعدم الاستقامة التي تكاد تسود معظم مساجد مناطق الجنوب الجزائريّ،كجامع سيدي عقبة ببسكرة، وجامع سيدي خويلد، وجامع تاجموت، وجامع عين ماضي، لأنّ في تخطيط مباني القصر المحيطة بالعمارة الدينيّة لا تسود استقامة الجدران.

ومن هذه المعطيات يمكن ملاحظة الاختلاف بين الجوامع العتيقة، والمساجد بالقصرين، من حيث أبعاد هذه الأخيرة التي بالرّغم من صغر مساحتها إلّا أنّ ذلك لم يمنع من احتوائها على نفس الأقسام، والملحقات، لهذا ستتمّ دراستهم مع بعض.

2) الوصـــف:

1-2) بيت الصّلاة: اختلفت أبعاد بيت الصّلاة في كلّ من الجوامع العتيقة، والمساجد لهذا بالإمكان إدراج نوعين منها :

- **النّوع الأوّل:** بيت الصّلاة ذات الشّكل المستطيل ،عمقها أكبر من عرضها ،تمثّلت في بيت الصّلاة للجامع العتيق بتماسين عمقه 20,50 م وعرضه 19,20م ، ومسجد القبّة الخضراء عمقه 10,5م وعرضه 7م، ومسجد عبد الله المغراوي عمقه 7,70 م وعرضه 6,50م، وهي بذلك شبيهة في تخطيطها بالعديد من الجوامع بالمغرب الإسلاميّ على مراحل مختلفة مثل جامع المنصورة 702هـ/1302م، وجامع القيروان، والجامع العتيق بعين ماضي (لوحة 02).

– النّوع الثّاني: بيت الصّلاة ذات الشّكل المستطيل عرضها أكبر من عمقها، وتتمثّل في بيت الصّلاة لجامع تقرت الذي يبلغ عرضه 24,95م وعمقه 23,20م، ومسجد با عيسى عرضه 11,74م وعمقه 9,85م، وهي بهذا شبيهة ببيوت الصّلاة لكلّ من جامع سيدي بومدين 733هـ/1338م، وجامع سيدي أبو مروان بعنابة، وجامع ابن سهلون بورقلة، وجامع قصر المنيعة، وجامع سيدي إبراهيم بتيميمون(Schacht,J.1954:37)، فهذا ما يدلّ على أنّ هذا النّوع من بيوت الصّلاة لم يكن حكرا على المناطق الجنوبيّة بل عرف في مناطق أخرى من الوطن، كما يوجد ما يشبهه بإفريقيا الجنوبيّة، وربّما تعود كثرة استعماله بالجوامع والمساجد الصحراويّة إلى تأثيرات خارجيّة، باعتبار المنطقة كانت نقطة عبور للقوافل التجاريّة مثلها مثل الجنوب الغربيّ،

كما لا يستثنى اعتباره نوعا من التّخطيط الذي يتلاءم، وعادات المنطقة المستقاة من الدّين الإسلاميّ، بحيث يساعد على حشر أكبر عدد من المصلين في الصّف الأوّل لما فيه من أجر كبير(حملاوي،ع.2000 :121)، ومن العناصر المهمّة التي يمكن ملاحظتها ببيت الصّلاة:

أ) المداخل:

في كلّ من الجوامع والمساجد يفصل بيت الصّلاة عن الصحن جدار فتح به مدخل رئيسي باستثناء بيت الصّلاة للجامع العتيق بتماسين التي يفتح بابها الرئيسيّ مباشرة على السّاحة، بالإضافة إلى أبواب ثانوية لتسهيل عمليّة وصول المصلّين من مختلف جهات القصر.

يفتح المدخل الرئيسيّ في الجامع العتيق بتقرت بالجدار الغربي لبيت الصّلاة ،ارتفاعه 2,29م وعرضه 1,68م ،يؤدي مباشرة إلى الرّواق المطلّ على الصّحن، ومدخلين ثانويين إحداهما بالجدار الغربيّ ارتفاعه 1,98م وعرضه 1,68م، يفتح على سقيفة تؤدّي إلى الجزء المخصّص لصلاة النّساء، ومنه إلى الشارع ويتكوّن بابه من مصراعين، ومدخل ثان بالجدار الجنوبيّ كان يؤدّي إلى الرّقاق، ولكنّه مع الزيادات التي تعرّض لها المسجد أصبح هذا المدخل يؤدّي إلى الميضأة الجديدة.

أما الجامع العتيق بتماسين فإنّ مدخله الرئيسيّ يفتح بالجدار الشّماليّ، يعلوه عقد نصف دائريّ ارتفاعه 2,95م وعرضه 2م، يتكوّن بابه من مصراعين، ويتقدّم هذا المدخل قبّة كبيرة مرفوعة على حنايا ركنيّة، بالإضافة إلى مدخلين ثانويين إحداهما بالجدار الغربيّ، ارتفاعه 2,10م وعرضه 0,64م ،يعلوه عقد نصف دائريّ، يؤدّي مباشرة إلى الرّقاق ويتكوّن بابه من مصراعين، كما يفتح بالجدار الشرقيّ المدخل الثاني الذي يؤدي إلى الرّواق المفتوح على الصّحن، وغرفة الإمام، والميضأة، ويصل ارتفاع هذا المدخل إلى 2م وعرضه 1م، هذا فيما يخصّ الجوامع العتيقة، أمّا المساجد فإنّ بيت الصّلاة بمسجد عبد الله المغراوي يحتوي على مدخل رئيسي ارتفاعه 2م وعرضه 1,20م يتوسّط الجدار الشّماليّ يؤدّي مباشرة إلى الصّحن عبر رواق فاصل بينهما، ومدخل ثانويّ يتوسّط الجدار الغربيّ لا يختلف في أبعاده عن المدخل الرئيسي، يفتح على الرّواق المحاذي لبيت الصّلاة من الجهة الغربيّة.

أما مسجد القبّة الخضراء فإنّ المدخل الرّئيسيّ لبيت الصّلاة يفتح بالجدار الغربيّ، ارتفاعه 1,73م وعرضه 1,09م،يتكوّن بابه من مصراعين، في حين يفتح المدخل الثانويّ بالجدار الشّرقيّ في الجزء المضاف لبيت الصّلاة، وهو يؤدّي مباشرة إلى الجامع العتيق وبيت الحاج علي التماسيني مؤسّس المسجد، وهذا المدخل له باب ذو مصراعين ،ارتفاعه 1,97م وعرضه 1م، في حين تحتوي بيت الصّلاة بمسجد با عيسى على مدخل رئيسيّ يفتح على الرّواق الذي يتقدّم الصّحن، يتكوّن بابه من مصراعين ،ارتفاعه 1,85م وعرضه 1,10م، وهذا المسجد الوحيد الذي لا يحتوي على مداخل ثانويّة.

ومنه نلاحظ مدى أهميّة المداخل الرّئيسيّة التي تفتح على السّاحة العامة وتؤدّي مباشرة إلى الشّوارع الرّئيسيّة، وهي أكثر عرضا زوّدت بأبواب من مصراعين مزخرفة بمسامير معدنيّة زيادة في إبرازها، وهي شبيهة بأبواب عمارة تونس، وبحسب الرّوايات الشّفهيّة فإنّه تمّ جلبها من هناك، في حين تفتح المداخل الثانوية على الأزقة التي تؤدّي في الغالب إلى المساكن القريبة.

ب) البلاطات والأساكيب:

تتكوّن بيت الصّلاة للجوامع والمساجد من مجموعة من البلاطات العموديّة على جدار القبلة، والأساكيب الموازية له، وتختلف أعدادها ،ومقاساتها من حين إلى آخر، وما يميّز هذه البلاطات هو ذلك الاتّساع الذي يميّز البلاطة الوسطى عن غيرها من البلاطات، إلّا في حالات التّوسعة لبيت الصّلاة، ففي الجامع العتيق بتقرت تتساوى البلاطة الوسطى بالبلاطات الأخرى (2.59 م) نتيجة أعمال

التّوسعة، وتضيق البلاطة الوسطى بجامع تماسين(1.90 م) مقارنة بالبلاطات الأخرى (2.10 م)، وربّما يعود ذلك للزّيادات المتكرّرة لبيت الصّلاة كما سبق الذّكر، لهذا كان المحراب منحرفا عن البلاطة الوسطى.

أمّا البلاطة الوسطى بمسجد عبد الله المغراوي (1.91 م) فإنّها لا تزيد عن البلاطات المجاورة إلّا ببعض السنتيمترات (1.86 م)، لأنّ البلاطة الوسطى في الأصل توجد قبالة المحراب القديم والتي يصل عرضها 2,05م بحيث تظهر بشكل واضح عند دخول المسجد، أمّا هذه البلاطة الوسطى فإنّها أوجدت مع المحراب الجديد لبيت الصّلاة، في حين يظهر الفرق واضحا بين البلاطة الوسطى لمسجد باعيسى (2.40م) والبلاطات الأخرى(2.24 م)، والبلاطة الوسطى لمسجد القبّة الخضراء (2.56 م) والبلاطات الأخرى(1.51 م) على اعتبار أن هذه المساجد لم تجر عليها عمليّة توسِعة.

ج) المحاريب:

يعتبر المحراب من العناصر الأساسيّة في الجوامع والمساجد ، إذ يرتبط بقدسيّة المكان المعدّ للتعبّد والاتّصال بالله سبحانه وتعالى، فجاء ذكر لكلمة "محراب" في عدّة آيات قرآنيّة منها قوله سبحانه وتعالى : « ... وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...» (سورة آل عمران، الآية 37)،كما يقول : « ... وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ...» (سورة آل عمران، الآية 39).

فعمل البنّاءون على إبراز المحراب كعنصر أساسيّ بمعظم الجوامع والمساجد بالمغرب الإسلاميّ دون الخروج على الشّكل التقليديّ ذي التجويف النّصف الدائريّ كمحراب جامع القيروان، ومحراب الجامع الكبير بتلمسان، ومحراب جامع الزيتونة (250هـ/864م)، ومحراب الجامع الكبير بالجزائر.

يبدو الفرق واضحا بين محاريب المساجد بقصر تماسين، وبين محاريب الجوامع، فالأولى بسيطة وخالية من أي زخرفة، في حين تظهر محاريب الجوامع بشكل واضح من خلال عمق تجويفها، وكبر مقاساتها، والزّخارف المحيطة بها، فمحراب الجامع العتيق بتقرت ذو تجويف نصف دائريّ، ارتفاعه 2,70م وعرضه 2,08م وعمقه 30,م ،يعلوه عقد متجاوز يكتنفه عمودين أسطوانيين ارتفاع كلّ منهما 0,77م ينتهيان بتاج مزيّن بعناصر نباتيّة تمثّلت في أوراق العنب، ومجموعة من الأهلّة، كما يحيط بالمحراب إطار من الزّخارف الجصيّة، وقد لبست جدران المحراب ببلاطات خزفيّة زادته روعة وجمالا، فهو لا يقلّ روعة عن زخارف الجامع الكبير بتلمسان، لوجود تواصل حضاريّ بين مناطق جنوب البلاد وشمالها وبالتّالي انتقال التّأثيرات المعماريّة والفنيّة(لوحة 03).

أمّا محراب الجامع العتيق بتماسين فإنّه بدوره ذو تجويف نصف دائريّ، ارتفاعه 2,38م وعرضه 1,24م وعمقه 1,12م، يعلوه عقد منكسر متجاوز محمول على عمودين اسطوانيين في كلّ جهة ،ارتفاع كلّ منهما 0,75م ، مزخرف بزخارف جصيّة شبيهة بتلك المعروفة بالكثير من جوامع المغرب الأوسط في العهد الزيانيّ والمرينيّ، إذ يعلوه تاج مزخرف بعناصر نباتيّة، ويحيط بالمحراب إطار منحني مفصّص يتكوّن من عناصر زخرفيّة نباتيّة، يحيط به بعد ذلك مجموعة من الأشرطة ذات الزّخارف الكتابيّة والهندسيّة (Bouroiuba,R.1981:45-50) (لوحة 04).

يعتبر عمل زاوية غائرة في نواحي المحراب لوضع عمود بها كما في هذين المحرابين .من أهمّ الإبداعات في المحاريب الإسلاميّة منذ العصر الإسلاميّ المبكّر، فوجد أقدم مثال على ذلك في محراب قبّة الصّخرة، ويليه محراب المسجد الأمويّ بدمشق، ومن بعده محراب قصر المشتى (الشافعي، ف.1970 :620)، ثمّ سادت هذه الظاهرة المعماريّة العديد من المحاريب الإسلاميّة مثل محراب جامع القيروان، ومحراب الجامع الكبير بقسنطينة، وجامع سيدي صالح بورقلة، وجامع زاوية تملاحت بتماسين، وجامع سيدي الحسن

بتلمسان، وجامع قرطبة، وبذلك أصبح هذا العمل الفنيّ سائدا في الكثير من محاريب جوامع المغرب الأوسط (مطروح،أ.1994 :192).

إذا كان محراب الجامع العتيق بتقرت يتوسّط الجدار الشرقيّ لبيت الصّلاة، فإنّ محراب الجامع العتيق بتماسين ينحاز إلى الجهة اليمنى في اتّجاه الجدار الجنوبيّ بما لا يجعله يتوسّط جدار القبلة، فهل هذا راجع إلى عدم إتقان البناء ؟ لأنّ التّناظر من أهمّ ميزات العمائر والتّحف الإسلاميّة، أو إلى الزيادات التي أدخلت على الجامع ؟، وكلّ هذه التّساؤلات تحتاج إلى حقائق ملموسة خاصة، وأن هذه الظاهرة موجودة في جامع تنس، والجامع الكبير بقسنطينة (Bouroiuba,R.1981:40)، أمّا محراب مسجد با عيسى فإنّه ذو تجويف بسيط ارتفاعه 1,75م وعرضه 1,17م وعمقه 0,40م يعلوه عقد نصف دائريّ خال من أيّ زخرفة، في حين احتوى مسجد عبد الله المغراوي على محرابين : محراب قديم بالجدار الجنوبيّ ذو تجويف نصف دائريّ يقوم على عمودين من المرمر ينتهيان بتاج يعلوهما عقد متجاوز، ويبلغ ارتفاع هذا المحراب 1,90م، وعرضه 1,21م، وعمقه 1,51م ، وهو خال من أيّ زخرفة، ولكن مع تصحيح اتّجاه القبلة بني محراب ثان يتوسّط الجدار الشرقيّ ذو تجويف بسيط ارتفاعه 1,79م وعرضه 0,92م وعمقه 0,50م ،يعلوه عقد منكسر متجاوز، وفي هذه الحالة يمكن القول بأن وجود محرابين في بيت الصّلاة لهذا المسجد راجع لخطإ في تحديد القبلة فكلّ محراب في جدار مختلف، ولو أنّ ظاهرة وجود محرابين في نفس بيت الصّلاة وجدت في بعض المساجد الجامعة كجامع الجمعة بقصر تمرنة القديمة، والمسجد الجامع بقصر سيدي يحي (بوادي ريغ)، والجامع العتيق بغرداية (بسهل وادي مزاب)، وبما أنّ هذه المحاريب في نفس الاتّجاه فإنّ ذلك يدلّ على أنّ وجودها لم يكن خطأ في تحديد جدار القبلة كما في المثال السّابق بقدر ما يمكن إرجاع ذلك إلى الزّيادات المتكرّرة التي كانت تتعرّض لها هذه المساجد من حين لآخر.

أما محراب مسجد القبّة الخضراء فإنّه يقع بالجدار الشرقيّ لبيت الصّلاة ،ارتفاعه 1.93م وعرضه 1,03م وعمقه 0,50م ،يعلوه عقد نصف دائريّ ، وهو بسيط خال من أيّ زخرفة وربّما يرجع ذلك إلى فكرة الزّهد التي ارتبطت بالطّرق الدّينيّة منها الطّريقة التّجانيّة.

وزيادة في إبراز مكانة هذه المحاريب يتقدّم كلّ محراب سواء في الجوامع ، أو المساجد قبّة مميّزة وهذه من ميزات كلّ الجوامع والمساجد الإسلاميّة، كالجامع الأمويّ بدمشق، وجامع ابن طولون بالقاهرة، وجامع القيروان، والجامع المالكيّ بورقلة، وجامع قسنطينة .....وغيره، كما تتميّز محاريب الجوامع عن المساجد بتلك الغلالة من الزّخارف الكتابيّة ،والهندسيّة ،والنباتيّة التي تزيّن الإطار المحيط بها والقبّة التي تتقدّمها، بالإضافة إلى بساطة محاريب المساجد بتجويفها القليل العمق كأنّها وجدت فقط لتحديد القبلة، فتشترك بذلك محاريب هذه الجوامع العتيقة مع العديد من محاريب الجوامع، والمساجد بالمغرب الأوسط مثل محراب الجامع الكبير بتلمسان، ومصلّى قصر المنار بقلعة بني حمّاد، وجامع صفر بالجزائر العاصمة، ومسجد القصبة، وجامع كتشاوة قبل تحويله إلى كنيسة(Bouroiuba, R. 1987:40)، ومسجد سيدي مسعود لأبي الفضل ببسكرة، ومحراب مسجد سيدي خويلد، ومحراب مسجد ابن سهلون بورقلة(شهبي،ع.1979 :99).(لوحة03 –04)

د)– المنابـر:

يُعتبر المنبر من العناصر الأساسيّة التي أدخلها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في المسجد، والمنبر لغة هو مرقاة الخطيب، وسمي منبرا لارتفاعه، وعلوه، فهو محلّ مرتفع يرتقيه الخطيب يوم الجمعة والأعياد للخطبة، ويعدّ منبر جامع القيروان أقدم منبر بالمغرب الأوسط أنجز من طرف الأمير الأغلبي أبو إبراهيم أحمد سنة 248هـ/862م(Colvin,J.1960:45)، ويصنع المنبر غالبا من مادة الخشب ذات النوعيّة الجيّدة، فأبدع الفنانون، وتفنّنوا في زخرفته سواء بزخارف نباتيّة، أو هندسيّة، وحتى كتابيّة هذه الأخيرة التي كانت

في الغالب تحمل تاريخ صنعه، واسم الذي أمر بصنعه، وحتى صانعه، تنجز عن طريق النّقش أو الرّسم بالألوان، ونظرا لاقتصار استعمال المنابر على يوم الجمعة، والأعياد هيّئت لها أماكن خاصة تحفظ بها.

وفي جوامع المناطق التي تفتقر لمادة الخشب تبنى المنابر كجزء من عمارة المبنى بجدار القِبلة، وقد وجدت هذه الظاهرة المعماريّة في منبر جامع الأغواط، وجامع عين ماضي، والجامع العتيق بسيدي خويلد (ورقلة)، وجامع قصر المنيعة، والجامع العتيق بمتليلي، وجامع الجمعة بقصر تمرنة القديمة، ...وغيره(Schacht,J.1954:11)، ومنه يمكن القول بأنّ هذه الظاهرة المعماريّة كانت منتشرة في الكثير من جوامع قصور الجنوب الجزائريّ لقلّة النوعيّة الجيّدة من الخشب، ومع ذلك احتوى الجامع العتيق بتقرت على منبر من الخشب شبيه في تصميمه بالمنابر الإسلاميّة المعروفة كمنبر الجامع الكبير بالجزائر، ومنبر جامع القيروان وغيره، وهو لا يقلّ إتقانا وزخرفة عنها.

يحمل هذا المنبر تاريخ تجديده، وهو نفس تاريخ ترميم المسجد من خلال الكتابة الموجودة بإحدى عريضتيه وهي كالآتي:

جدّد هذا المنبر الشيخ

الذي اسمه إبراهيم الجواد أثنا

عليه كثير الناس في كل موطن

وهو ابن جلاب في الفضل جليس

عمق هذا المنبر 2,50م، وعرض مدخله 0,75م، أمّا ارتفاعه فهو 1,55م، يعلوه عقد متجاوز، يتمّ الصّعود إليه عن طريق سبع درجات أبعادها 0,30م النائمة، و0,22م القائمة و0,78م طولا، تؤدّي إلى جلسة الإمام، وتأخذ العارضتين المشكلّتين لجوانب المنبر شكل شبه المنحرف الذي ينتهي بإطار من الزّخارف النباتيّة،كما يتوسّط كلّ عارضة مجموعة من الزّخارف الهندسيّة، والنّباتيّة، والكتابيّة، والعمائريّة، ولمنبر الجامع العتيق شبه كبير بمنبر الجامع المالكيّ العتيق بقصر ورقلة 626هـ/1391م، والاختلاف الوحيد في عدم وجود تجويف خاص بإدخال المنبر بجامع تقرت ، وهو مثبت بالدّعامة المجاورة له، و لتحريكه زوّد بستّ عجلات.(لوحة 05)

أمّا منبر الجامع العتيق بتماسين فإنّه أقلّ حجما من سابقه عمقه 2,25م ،يتمّ الصّعود إليه عن طريق مدخل ارتفاعه 1,93م، وعرضه 0,80م، ومنه إلى ستّ درجات أبعادها 0,26م النائمة، و0,24م القائمة و 0,74م طولا، ويعلو هذا المدخل عقد مفصص، وامتاز هذا المنبر ببساطة زخرفته إذا ما قورن بمنبر الجامع العتيق بتقرت، ويعلو نهايته مقابض على شكل كريات ذهبية اللون، كما زينت كل عارضة بعشر حشوات خشبية شكلت بتقنية التعشيق، وللمنبر تجويف خاص يوضع فيه، وهذا النوع من المنابر وجد في جوامع المغرب الإسلامي خاصة تلك التي تعود إلى الفترة المرابطية كمنبر جامع ندرومة وجامع تلمسان، ومنبر الجامع الكبير بالجزائر العاصمة(Marçais,G.1926:420). (لوحة 06)

2 –2 الصّحن:

احتوت الجوامع والمساجد في كلا القصرين على الصّحن كعنصر أساسيّ يحيط به رواق (ساباط) أو أكثر، بالإضافة إلى ملحقات أخرى، والملاحظ هو اتّساع الصّحن في الجوامع عنه في المساجد مع التّشابه في الملحقات، فوجود الصّحن ظاهرة معروفة في معظم الجوامع والمساجد الإسلاميّة كالجامع الأمويّ بدمشق، وجامع عمر بن العاص بمصر بالمشرق الإسلاميّ، وجامع القيروان، وجامع المنصورة، وجامع تلمسان، ومسجد سيدي بومدين ..... وغيره بالمغرب الإسلاميّ، فالصّحن عنصر مهمّ في هذه المنشآت لما يوفّره

من إنارة وتهوية لبيت الصّلاة، بالإضافة إلى أنّه المكان المفضّل لأداء صلاة المغرب والعشاء صيفا، ولهذا الغرض زوّدت معظم هذه الجوامع والمساجد بمحراب خارجيّ بالصّحن (عنزة).

ولاختلاف أبعاد الصّحن في كلّ من الجوامع، والمساجد فإنّه بالإمكان إدراج نوعين منها:

– النوع الأول: الصّحن ذو الشّكل المستطيل عرضه أكبر من عمقه، والذي يتمثّل في صحن الجامع العتيق بتماسين يتمّ الوصول إليه عن طريق سقيفة منكسرة، أبعاد الجزء الأوّل 6م × 2,5م، وأبعاد الجزء الثّاني 7,5م × 2,5م، على يسارها ميضأة أبعادها 5,20م × 4,5م، وتؤدّي السّقيفة إلى مدخل ارتفاعه 2م وعرضه 1م (تعرّضت السّقيفة إلى التّهديم) تفتح على الصّحن المستطيل الشّكل الذي عرضه 8,50م وعمقه 6,6م، ويحيط به من الجهة الغربيّة رواق تحدّده ثلاثة أعمدة مستطيلة تعلوها ثلاثة عقود نصف دائريّة طول هذا الرّواق (السّاباط) 10,60م وعرضه 2,60م، وبركنه الشّماليّ يوجد سلالم منكسرة عدد درجاتها عشرة تؤدّي مباشرة إلى السّطح، ويتوسّط الجدار الشّرقيّ محراب (عنزة) ارتفاعه 1,80م، وعرضه 0,90م، كما يلحق بالجهة الجنوبيّة مكان للتّدريس أبعاده 7,30م x 2,5م، أمّا بالجهة الشّماليّة فيوجد غرفة للإمام 3م x 2م، كما وجد هذا النّوع بمسجد القبّة الخضراء عرضه 7,87م وعمقه 4,37م يتوسّط جداره الشّرقيّ محراب ارتفاعه 2,13م وعرضه 1,10م، وبالجهة الشّماليّة يفتح على الصّحن مكان مسقّف مخصّص لتعليم القرآن يعرف محليا بـ « الكربوسة » أبعاده 5,05م x 3,37م، ويزيّن أعلى الجدار الغربيّ للصّحن ثلاثة عقود صمّاء، فلم يكن هذا النّوع حكرا على الجوامع والمساجد الصحراويّة ،بل وجد بجوامع ومساجد إسلاميّة مختلفة كالجامع الكبير بتلمسان، ومسجد سيدي إبراهيم، ومسجد أبو حسن، ومسجد سيدي خالد ...الخ (Bouroiuba,R.1981:44-48).

النّوع الثّاني: الصّحن ذو الشّكل المستطيل عمقه أكبر من عرضه يتمثّل في صحن الجامع العتيق بتقرت عمقه 13,63م وعرضه 11,70م، والذي يتمّ الدّخول إليه من مدخل رئيسيّ ارتفاعه 2,75م وعرضه 1,65م، يؤدّي مباشرة إلى رواق يتكوّن من ستّة عقود متجاوزة ترتكز على سبعة دعامات مربّعة (0,71م) تبلغ مقاسات هذا الرّواق 13,63م × 3,52م، كما يحيط بالصّحن من الجهة الشّماليّة والجهة الغربيّة رواقان، أبعاد الأوّل 13,63م × 3,16م، وأبعاد الثاني11,70م × 3,40م يفتحان على الصّحن بوساطة خمسة عقود متجاوزة ترتكز على خمسة دعامات مربّعة، يفتح بركنها الشّماليّ الغربيّ مدخل ثانوي ارتفاعه 2,10م وعرضه 1,56م،كما يفتح بالرّكن الجنوبيّ الغربيّ للصّحن مدخل المئذنة ارتفاعه 0,72م وعرضه 0,35م، في حين ألحقت بالجهة الشّرقيّة للصّحن غرفتين إضافيتين. (لوحة 07)

أما الصّحن بمسجد با عيسى فإنّه ذو شكل مستطيل عمقه 10,37م وعرضه 9,37م، يتمّ الوصول إليه من مدخل رئيسيّ بالجهة الجنوبيّة للمسجد المطلّة على الشّارع الرّئيسيّ ارتفاعه 1,95م وعرضه 1,78م، كما يتوسّط الجدار الشّرقيّ محراب (عنزة) ارتفاعه 1,80م وعرضه 0,94م وعمقه 0,25م، ويحيط بالصّحن من الجهة الشّماليّة والغربيّة مجموعة من العقود النّصف دائريّة المحوّلة على أعمدة مربّعة (0,54م)، مشكّلة بذلك رواقين متجاورين أبعاد الأوّل 13,23م × 2,16م، وأبعاد الثاني 7,39م × 2,88م، وقد زوّد الرّواق الغربيّ بدكانات للجلوس ، وبالجهة الشّرقيّة ألحق بالصّحن مكتبة مقاساتها 6م × 3,5م، وغرفة للإمام ذات شكل مربّع طول ضلعها 2م، ومخزن أبعاده 5م 2,7×م، ويربط بين هذه الملحقات صحن إضافيّ عمقه 6م وعرضه 7م، في حين يتقدّم بيت الصّلاة لمسجد عبد الله المغراوي صحن ذو شكل مستطيل عمقه 11,40م وعرضه 6,50م ،يتوسّط جداره الشّرقيّ محراب (عنزة) للصّلاة في الهواء الطّلق، وبالرّكن الجنوبيّ الغربيّ دكانات للجلوس.

في حين يحيط به من الجهة الجنوبيّة رواق ذو ثلاثة عقود نصف دائريّة مرتكزة على دعامتين مربّعتين، كما فتح بالجدار الشّماليّ مدخل يؤدّي إلى المئذنة ارتفاعه 2,14م وعرضه 0,77م، وذلك على بعد 1,73م من المدخل الرّئيسيّ للمسجد، الذي تتقدّمه سقيفة مربّعة الشّكل طول ضلعها 3,67م، وقد ألحق بالصّحن من الجهة الشّرقيّة ميضأة أبعادها 5,70م x 1,90م، وبالجهة الغربيّة قاعة لتعليم الصّبية، وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها 6,50م x 3,50م، مقسّمة من الدّاخل إلى ثلاثة أقسام غير متساوية بوساطة أربع دعامات بارزة يعلوها عقود نصف دائريّة، بالإضافة إلى غرفة الإمام التي تفتح بالنّاحية الشّماليّة الشّرقيّة لبيت الصّلاة، وهي ذات شكل منحرف، وهذا النّوع من الصّحون بدوره وجد في العديد من الجوامع والمساجد على مستوى التّراب الوطنيّ في كلّ من مسجد سيدي الحلوي، مسجد المنصورة، مسجد سيدي بومدين، مسجد المنيعة... (Bouroiuba,R.1981:50).

ومن خلال ما ورد يمكن القول بأنّه بالرّغم من اختلاف أبعاد الصّحن من جامع أو مسجد إلى آخر إلّا أنّ وجوده كان ضروريا دينيا ومعماريا، فهو المكان المناسب صيفا لأداء صلاة المغرب والعشاء، وتهوية بيت الصّلاة وتزويدها بما تحتاجه من إضاءة، وبأركان الصّحن يفتح مدخل المئذنة، والمرافق الضروريّة لخدمة المصلين .

3 –2) المآذن :

لا يوجد بالجوامع العتيقة والمساجد لكلا القصرين سوى مئذنتين واحدة بالجامع العتيق بتقرت، والثانية بمسجد عبد الله المغراوي بتماسين بعد أن حوّلت مئذنة الجامع المالكيّ بتقرت مع ما حوّل من مسجد إلى برج للمراقبة في الفترة الاستعماريّة ليتمّ تهديمها فيما بعد، أمّا المئذنة التي ذكرها "دوماس"، والتي كانت بمسجد با عيسى فقد انهارت ولا وجود لها اليوم.

أ- **مئذنة الجامع العتيق بتقرت:**

تشغل هذه المئذنة الرّكن الجنوبيّ الغربيّ لصحن الجامع يفتح مدخلها مباشرة على رواق ارتفاعه 0,72م وعرضه 0,35م، ذات ارتفاع متوسّط (27 م) قاعدتها مربّعة الشّكل (طول ضلعها 6 م)، وهي بذلك شبيهة بالمآذن المغربيّة، وتتكوّن المئذنة من بدن ارتفاعه 22.20 م وجوسق ارتفاعه 4.80 م أي من طابقين، حيث يرتفع البدن من الأعلى إلى الأسفل محتفظا بنفس الأبعاد أي دون وجود تراجع لجدرانه نحو الدّاخل، وينقسم بدنها بوساطة مجموعة من الآجر إلى قسمين، وهي بهذا شبيهة بمئذنة مسجد سيدي إبراهيم، والجامع الكبير بالجزائر المتأثّرة بدورها بمآذن الموحّدين .(Bouroiuba,R.1981:86)

يؤدّي مدخل المئذنة مباشرة إلى دعامة مركزيّة صمّاء، كما هو الحال في مآذن المغرب الأوسط، يلتفّ حولها سلّم سقفه على شكل قبو نصف اسطوانيّ، خلافا لما هو معروف في بعض المساجد الإسلاميّة حيث يكون السلّم خارج المئذنة كما هو الحال في ملوية جامع سمراء 3هـ/9م، أو قد يكون للمئذنة درج مزدوج وهو ما انفردت به مئذنة قرطبة، أو يحلّ مكان السلّم طريق صاعد يدور حول المئذنة حتى قمّتها ،كما هو الحال في مئذنة جامع المنصورة بتلمسان(Ricard,P.1924:157)، و من الخارج يزخرف أعلى المئذنة من جهاتها الأربعة عمودان يعلوهما ثلاثة عقود متجاوزة منكسرة صمّاء، ويتوسّط الشّرفة جوسق تعلوه قبّة محمولة على أربعة عقود نصف دائريّة محمولة بدورها على دعامات مربّعة، ويعلو القبّة سفود بارز يحمل كرة معدنيّة، وبين جدران الشّرفة والجوسق فراغ يسمح للمؤذّن بالتحرّك بكلّ سهولة، ومئذنة الجامع العتيق بتقرت قليلة الزّخرفة، إذ لم نقل تكاد تكون خالية، مقارنة بزخرفة مئذنة مسجد عبد الله المغراوي باستثناء العقود الصمّاء السّابقة الذّكر والشّرفات الثّلاثة التي تزيّن أعلى المئذنة من كلّ جهة (لوحة 08).

ب – مئذنة مسجد عبد الله المغراوي:

تقع هذه المئذنة بالجدار الشماليّ للصّحن بموازاة واجهة بيت الصّلاة ارتفاعها 24 م، وهي لم تخرج عن شكل المآذن المألوفة بالمغرب الأوسط ذات القاعدة المربّعة طول ضلعها أربعة أمتار، وتبدأ جدران هذه المئذنة بالتّراجع كلّما ارتفعنا إلى الأعلى، وهي نفس الظاهرة المعماريّة التي عرفت بها مئذنة القيروان، ومآذن مساجد المناطق المجاورة، وتتكوّن هذه المئذنة من ثلاثة طوابق، حيث تبدأ بالقاعدة التي تأخذ الشّكل المربّع كما سبق الذّكر هذه الأخيرة التي تمّ ترميمها بالإسمنت المسلّح، وزوّدت بأربع دعامات في جهاتها الأربعة سنة 1958 (قارة،م.1986 :32).

أما البدن فيمثّل ثلاثة أرباع المئذنة (16 م)، يتكوّن من جزأين جزء يبدأ من القاعدة يصل ارتفاعه 11م، وهو أضخم جزء بالمئذنة يظهر عليه الانسياب بشكل واضح، وجزء ثان يتراجع عن الجزء الأوّل بحوالى 0,15م يصل ارتفاعه 5م، أي ما يعادل ثلث البدن، وقد حظي هذا الجزء من المئذنة بأكثر التّشكيلات الزّخرفيّة لينتهي في الأعلى بشرفات مسنّنة غاية في الإتقان، كما زوّد البدن بأربع فتحات في كلّ جهة زيادة في التّهويّة والإنارة للسلّم، بالإضافة إلى الدّور المعماريّ من حيث توزيع الثّقل، لتنتهي المئذنة بجوسق مربّع مشبّع بنوافذ معقودة بعقود حدويّة.(لوحة 9)

هذا من حيث المظهر الخارجيّ للمئذنة، أمّا من الدّاخل فإنّه يتمّ الصّعود إليها عن طريق مدخل (ينظر التعليق رقم 3)بالنّاحية الشّماليّة الغربيّة للجدار المطلّ على صحن المسجد ارتفاعه 2,14م وعرضه 0,77م، وهو يبعد عن المدخل القديم للمسجد بـ5,60م، وعن المدخل الحديث بـ 1,73م، يتمّ الصّعود إلى الباب عن طريق ثلاث درجات، ومنه إلى الشّرفة الحديثة العهد عن طريق سلّم، وبهذه الشّرفة يوجد المدخل الرّئيسيّ بالجهة الغربيّة للمئذنة ارتفاعه 1,73م وعرضه 0,68م، ويعلو هذا المدخل عقد نصف دائريّ مشكّل بوساطة الآجر ومنه يتمّ الانتقال مباشرة إلى داخل المئذنة أين يوجد دعامة مركزيّة صمّاء، ويغطى السلّم بقبوين أسطوانيين يدور حول الدّعامة المركزيّة سبع دورات، وبكلّ دورة تسع درجات تنتهي باستراحة ، ويتخلّل الجدار الجنوبيّ للدورة الخامسة طاقة أبعادها 0,84م × 0,55م، وممّا يلاحظ أثناء الصّعود هو تناقص ارتفاع السّقف من 3,70م ليصل إلى 1,78م في الدّورة الأخيرة أين يوجد فراغ على شكل غرفة صغيرة أبعادها 2,05م × 0,78م، وهي مسقّفة بوساطة جذوع شجر العرعار التي تمّ جلبها من تونس، ومنه يتمّ الانتقال إلى الشّرفة ذات الأبعاد 3,66م x 3,58م (ينظر التعليق 4) بحيث يفصل بينهما وبين جدران الجوسق فراغ يدور حوله المؤذّن ، وللمئذنة ثلاثة ميازيب فخاريّة لتصريف مياه الأمطار، أمّا الجوسق فإنّه مربّع الشّكل ارتفاعه 5م يتمّ الصّعود إليه بأربع درجات يعلوه عقد منكسر متجاوز يعلوه إفريز وغرفة جوسق مربّعة الشّكل طول ضلعها 2,10م تعلوها قبّة محمولة على أربعة حنايا ركنيّة يزيّنها سفود بارز يحمل كرة معدنيّة وهلالين(لوحة 09)، وتعدّ هذه المئذنة فريدة من نوعها من حيث غلالة الزّخرفة بالآجر التي تزيّن جدرانها الخارجيّة بحيث لا تقلّ جمالا عن مئذنة الجامع الأعظم بتلمسان، ومئذنة الكتيبيّة بمراكش. (لوحة 9 ،10)

رابعا– الجانب الزُّخرفيّ:

تعدّدت المواد الزُّخرفيّة المستعملة في جوامع ومساجد قصري تقرت وتماسين من الجصّ الذي يعرف محليا بالتبشمت، والآجر الذي كان يصنع بالمنطقة لتوفّر المادة الطّينيّة، وخشب أشجار النّخيل والرّمان والمشمش التي كانت تنمو بالمنطقة، وخشب أشجار الزّيتون الذي كان يجلب من تونس، بالإضافة إلى بعض أنواع المعادن كالحديد والنّحاس اللّذين استعملا بكثرة في النّوافذ والأبواب، وقد تنوّعت العناصر الزُّخرفيّة التي اِستخدمت في زخرفة هذه العمائر من زخرفة نباتيّة، وهندسيّة، وكتابيّة، ومعماريّة، فمن أبرز العناصر الزُّخرفيّة الهندسيّة المعيّنات التي استخدمت في زخرفة جصّ قبّة المحراب والإطار المحيط به بالجامع العتيق بتماسين. (لوحة 4)

كما استخدمت المعيّنات في زخرفة مئذنة مسجد عبد الله المغراوي باستعمال مادة الآجر، وذلك على شكل سلسلة مكوّنة من سبعة أو تسعة منها والتي تمّ استنباطها من الزّخارف التي تزيّن الصّناعات المحليّة بمنطقة وادي ريغ كالسّجاد، والفخار والحُليّ، والتي وُجِد مثيل لها بالجنوب التُّونسيّ، وبجنوب المغرب الأقصى مع الاختلاف في تقنية الزّخرفة، وتعتبر زخرفة المآذن بالمعيّنات من مميّزات المآذن بالمغرب الأوسط كمئذنة الجامع الأعظم بتلمسان، ومسجد سيدي أبو الحسن ومئذنة جامع سيدي بومدين، بحيث تكسو الواجهات الأربعة لتلك المآذن غلالة من المعيّنات المتراكبة والمتّصلة فيما بينها(مرزوق، م.د.ت :87).(لوحة 10)

أما العناصر الزُّخرفيّة النّباتيّة فهي متعدّدة من أزهار وأوراق، ومن أهمّها الأزهار الرّباعيّة والخماسيّة والسداسيّة الفصوص التي تُزيّن قبّة المحراب والإطار المحيط به لجامع تقرث، وأزهار متعدّدة الفصوص تزيّن منبر الجامع العتيق بتقرث أنجزت كلّها بالألوان المائيّة، أمّا التي تُزخرف إطار محراب الجامع العتيق بتماسين فقد أُنجزت على الجصّ والأمر نفسه ينطبق على الزّهرة السّداسيّة الفصوص التي نقشت بمدخل مسجد القبّة الخضراء ثم لُوّنت بألوان مائيّة زيادة في إبراز النّقش، أمّا الأوراق فهي بدورها متعدّدة إذ تزيّن أوراق العنب تاج عمودي محراب جامع تقرث، في حين استخدمت الأوراق النّخيليّة البسيطة في زخرفة تاج محراب الجامع بتماسين، ونفس العنصر الزّخرفيّ وجد بالزّخرفة الجصيّة للجامع الكبير بتلمسان، أمّا الأوراق النّخيليّة المزدوّجة فإنّها تُزخرف الإطار المحيط بمحراب جامع تماسين، وهي شبيهة بالأوراق النّخيليّة التي عرفت في العمائر الزيانيّة والمرينيّة كمسجد سيدي الحلوي، ومسجد سيدي أبو الحسن، كما استخدمت الوريقات النّخيليّة ضمن دائرة شبيهة بتلك التي تُزخرف محراب جامع القيروان، ومسجد سيدي أبو الحسن (حملاوي، ع.1992 :63)(لوحة 11 ،12)، ومن النّمار كيزان الصّنوبر المحفورة على الجِصّ التي تزيّن جدار القبلة لبيت الصّلاة لجامع بني جلّاب بتقرث والتي هي شبيهة بالعناصر الزُّخرفيّة التي تزيّن جدار ضريح السّيّدة نفيسة بالقاهرة(لوحة)، ومن الزّخارف التي شُكّلت عن طريق الألوان مجموعة من الأوراق المختلفة البسيطة والمفصّصة تتخلّلها مجموعة من الأزهار والوريدات رسمت على منبر الجامع العتيق بتقرث. (لوحة 13 ،ش 1)

أمّا العناصر الزُّخرفيّة الكتابيّة فهي متعدّدة بمساجد وجوامع القصرين أُنجزت إمّا على الجصّ كالكتابة التّأسيسيّة للمسجد الجامع بتقرث، والعناصر الكتابيّة التي تحيط بمحراب جامع تماسين، والتي تتمثّل في عبارة" بنعمة الله " متكرّرة، وعبارة " بسم الله الرّحمن الرّحيم" على جانبي المحراب، والتي أُنجزت على شكل إجاصة بتقنية الحفر الغائر، في حين زُخرف منبر المسجد الجامع بتقرث بعناصر كتابيّة باستعمال الألوان المائيّة، والحفر الغائر والبارز، وقد تنوّعت الخطوط المستخدمة في الزّخرفة بين الخط الكوفيّ والخط المغربيّ، وخط الثّلث، وهذا التّنوّع دليل على ما وصل إليه فنّان المنطقة من تمكّن في تقنيات النّقش والزّخرفة بالألوان على مختلف المواد.

كما تنوّعت العناصر العمائريّة المستخدمة في الزّخرفة كالشّرفات المسنّنة التي تزيّن الواجهة الرئيسيّة لجامع تقرث، وأعلى مئذنة مسجد عبد الله المغراوي بقصر تماسين، بالإضافة إلى العقود الصّماء التي تزخرف كلّ من مئذنة جامع تقرث وأعلى محراب مسجد عبد الله المغراوي، وزخرفة جدار صحن مسجد القبّة الخضراء، وجلّ هذه العناصر العمائريّة التي وجدت بهذه العمارة الدّينيّة شبيهة بما وجد في مثيلاتها في مختلف أرجاء البلاد ، لأنّ دورها لم ينحصر فقط في الزّخرفة، ولكن كان لها دور معماريّ كتوزيع الثّقل وكسر النّظر.

- **خاتمة:**

وخلاصة القول، فعلى الرّغم من وجود هذين القصرين بجنوب الجزائر، إلّا أنّهما لم يكونا بمنأى عمّا عرفته عمائر شمال البلاد بخاصة الدّينيّة منها، من حيث تخطيطها وتنوّع عناصرها المعماريّة، والزّخرفيّة، فهي شبيهة بما وجد في جوامع و مساجد تلك المناطق بخاصة تلك التي تعود إلى الفترة الزيانيّة، والمرينيّة، وهي الفترة المزامنة لحكم بني جلّاب بالمنطقة، حيث عرفت العمارة في كلا القصرين

أوجّ ازدهارها (من القرن 09 هـ إلى 13هـ / 15 م-19 م)، إذ حاول بنّاءو المنطقة مضاهاة بعض الجوامع، كالجامع الأعظم بتلمسان، ومئذنة الكتيبية بمراكش، وجامع القيروان بتونس.

وهذا لم ينف وجود زخارف محليّة ظهرت وتطوّرت في نفس البيئة تمتدّ جذورها إلى أقدم العصور، استخدمت في تزيين الصّناعات المحليّة بالمنطقة، والتي وُجِد لها مثيل بالجنوب التّونسيّ، وبجنوب المغرب الأقصى نتيجة العلاقات التّاريخيّة التي ربطت بين أنحاء المغرب الإسلاميّ، والتي تجسّدت في زخرفة العمارة الدينيّة، ليمتدّ تأثّر العناصر الزّخرفيّة بالعمارة الدّينيّة في المنطقة بمصر من خلال ذلك التّشابه الفنيّ الذي وجد بين العناصر الزّخرفيّة التي تزيّن جدار القبلة لبيت الصّلاة لجامع بني جلّاب بتقرت، والعناصر الزّخرفيّة التي تزيّن جدار ضريح السّيّدة نفيسة بالقاهرة، وهذا دليل واضح على وجود علاقات تاريخيّة وحضاريّة ربطت المنطقة بالمشرق والمغرب من خلال القوافل التّجاريّة، وركب الحجّ الذي كان من ضمنه علماء وحرفيين وصنّاع حملوا معهم ثقافتهم وخبراتهم.

– ملاحق :

تعليق رقم 1: الحاج علي بن عيسى ولد سنة 1178هـ/1769 م بتماسين أخذ الطريقة التّجانيّة عن أحمد التجاني الذي استخلفه عليها بعد مماته، وهو مؤسّس تملاحت وبوفاته في 22 أفريل 1844م خلفه ابنه محمد العيد، لمزيد من المعلومات ينظر : التجانيٍ، م. خ.1964: 10 -45).

تعليق رقم 2: مازال هذا الباب قائم إلى اليوم وهو يؤدّي مباشرة إلى غابات النّخيل.ينظر قادري، ع. 1999: 48).

تعليق رقم 3: المدخل حديث فتح أثناء التّرميمات التي أجريت على المئذنة إذ أن المدخل القديم يوجد بالنّاحية الشّماليّة الشّرقيّة ارتفاعه 2,05م وعرضه 0,90م (بالمعاينة).

تعليق رقم 4 : تقع الشّرفة عادة بأعلى الطّابق الأوّل للمئذنة حول الجوسق، وقد تدور حول بدن المئذنة كما قد يكون للمئذنة الواحدة أكثر من شرفة، كما بمئذنة جامع الباشا بوهران الذي يعود إلى العصر العثمانيّ. ينظر (عزورق، ع.1991)

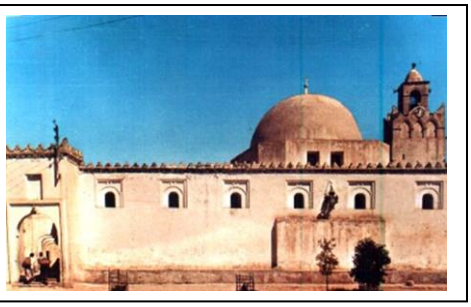

لوحة 01:واجهة الجامع العتيق

لوحة 02 :بيت الصّلاة للجامع العتيق

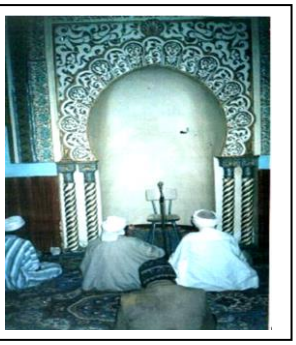

لوحة03:محراب الجامع العتيق

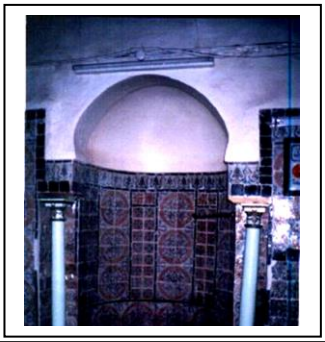

لوحة04 ،:محراب الجامع العتيق

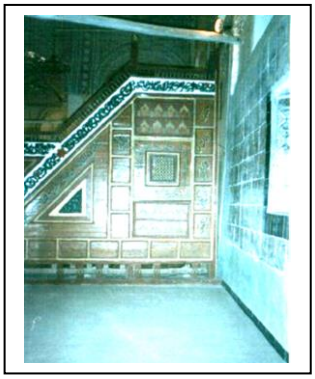

لوحة 05:منبر الجامع العتيق بتقرت

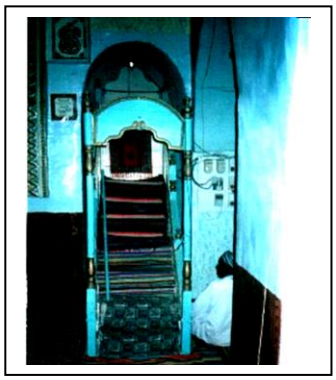

لوحة 06:منبر الجامع العتيق بتماسين

لوحة 07 :صحن وأروقة الجامع العتيق

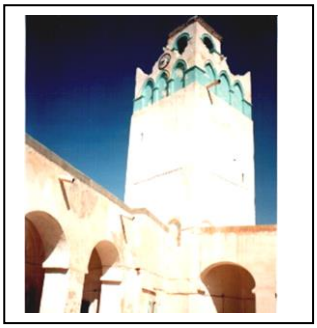

لوحة08: مئذنة الجامع العتيق

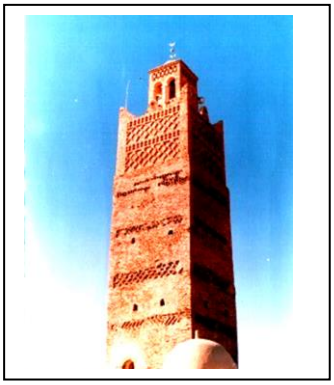

لوحة 09: مئذنة مسجد عبد الله

لوحة 10 : مئذنة الجامع الأعظم

لوحة 11 : محراب جامع

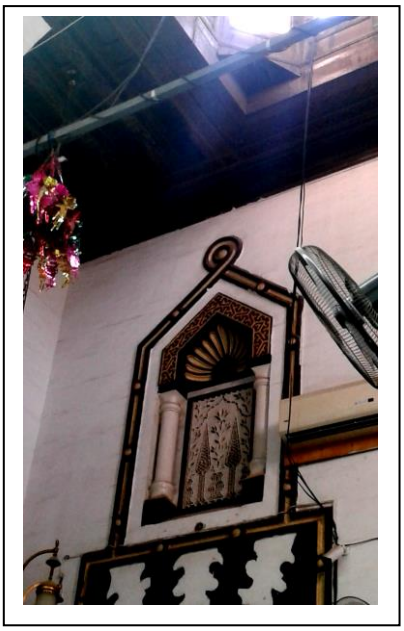

ش 1 زخرفة نباتيّة بالجامع العتيق بتقرت(كيزان الصّنوبر)

لوحة 13 :زخارف من كيزان الصنوبر بمقام

لوحة 12: نماذج من الزخارف

– المصادر والمراجع :

باللّغة العربيّة:

1 –القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

2 – قلعة جي، عبد الفتاح. (1991). مدخل إلى علم الجمال الإسلاميّ. ط 1. بيروت: دار قشيحة.

3 – سابق، السّيد. (1993). فقه السّنة. المجلّد 1. دمشق: دار الفكر

4 – ابن دومة، محمد الطاهر. (1995).مذكرة أخبار تاريخيّة لواحة تقرت وبعض ضواحيها. تحقيق الطّاهر عبد الجواد، الجزائر: المطبعة العصريّة للواحات.

5 – شهبي، عبد العزيز. (1985). دراسة أثريّة لمساجد الرّاب ووادي ريغ. رسالة دكتوراه، حلقة III، جامعة الجزائر.

6 – الدرجيني، أبو العباس أحمد. (د.ت). طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق إبراهيم طلاي. الجزء الأوّل. قسنطينة: مطبعة البعث.

7 – التّجاني، محمد خميسي .(1964). الحاج علي بن عيسى التّماسينيّ. مخطوط من 66 صفحة. مخطوط محفوظ بالزّاوية التّجانيّة. غير محقّق.

8 – قادري، عبد الحميد. (1999). التّعريف بوادي ريغ. الجزائر: المطبعة العصريّة للواحات.

9 – بلدية تماسين.(ذ.ت) ،لمحة وجيزة عن تاريخ تماسين. مطبوعة بأرشيف بلدية تماسين.

10 – العياشي، العياشي،أبو سليم عبد الله(1898). ماء الموائد، طبعة فاس.

11 – قارة، محمد. (1986). تقرير لوضعية المعالم الأثرية بالمنطقة. مديريّة المعالم والمواقع التّاريخيّة والمتاحف. الجزائر: وزارة الثقافة والسّياحة.

12 – حملاوي، (علي).(1992). الزخرفة الجصية بين التطور والانحطاط في المباني الإسلامية بالجزائر(ق 4 هـ –8 هـ/10 م–14 م)، مجلة الدراسات الأثرية. الجزائر.

13 – حملاوي، (علي).(2000). قصور منطقة جبال عمور (السّفح الجنوبيّ) من القرن العاشر إلى القرن الثّالث عشر الهجريّ (16م–19م). دراسة تاريخيّة أثريّة، بحث لنيل شهادة دكتوراه الدّولة في الآثار الإسلاميّة، جامعة الجزائر، الجزائر.

14 – الشافعي، فريد. (1970). العمارة العربيّة في مصر عصر الولّاة. المجلّد الأوّل. مصر: الهيئة المصريّة العامة للتّأليف والنّشر.

15 – مرزوق، محمد عبد العزيز. (دون تاريخ). الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس. بيروت: دار الثقافة.

16 – مطروح، أم الخير. (1993–1994). تطوّر المحراب في عمارة المغرب الأوسط. رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر.

17 – شهبي، عبد العزيز. (1979). ثلاثة مساجد من الشرق الجزائريّ.بحث لنيل شهادة دبلوم الدّراسات المعمّقة في التّاريخ الإسلاميّ، جامعة الجزائر، الجزائر.

18 – عزوق، عبد الكريم.(1991). تطوّر المآذن في المغرب الأوسط مع بداية دولة بني حمّاد حتّى نهاية العصر العثمانيّ. رسالة ماجستير في الآثار الإسلاميّة. جامعة الإسكندريّة. مصر.

باللّغة الأجنبيّة:

19 - Jus, H. (1884). Les oasis de l'oued Rir en 1856-1883, Paris.

20 - Pein, M. (1893). Lettres familières sur l'Algérie, un petit royaume arabe. Alger : Adolphe Jourdan

21 - Berrbrugger,(A).(1855).« Description de Temacine, Sahara de la province de Constantine ». Revue orientale et Algérienne. Tome II.

22 - Daumas, C. (1845). le Sahara algérien, études Géographiques, statistiques, et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie. Paris. Fortin Masson et Cie.

23 - Boisnard, (M). (1933). Sultans de Touggourt, Paris.

24 - Schacht,(J).(1954). sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara. Travaux de l'instit de recherche Saharien, T 11.

25 - Bourouiba, (R). (1973). L'art religieux musulman en Algérie, Alger: SNED.

26 - Bourouiba,(R). (1987). Apport de l'Algérie à l'architecture Religieuse arabo-islamique, Alger: Entreprise nationale du livre.OPU.
27 - Colvin, (L). (1960). la mosquée ses origines ses morphologie ses diverses son rôle dans la vie musulmane plus spécialement en Afrique du nord, Alger.
28 - Marçais, (G). (1926). Manuel d'art musulman du IV au XII Siècle, Paris.
29 - Ricard(P), (1924).Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Paris.